



Original article

The Concluding Admonitions in the Sermon of Luqman the Wise to His Son

Alaa Abdul Hussein Radhi

Wasit University – College of Education for Human Sciences

ABSTRACT

This study aims to examine the five concluding admonitions—namely, enjoining what is right and forbidding what is wrong, patience, humility, moderation in walking, and lowering the voice—presented by Luqman the Wise to his son in Surat Luqman (verses 17–19). It seeks to uncover the principles, etiquettes, and ethical and behavioral values that Luqman the Wise advocated and emphasized through an in-depth analysis demonstrating clearly that these admonitions are not merely incidental counsels. Rather, they constitute an integrated and coherent educational framework aimed at shaping the believing individual and the advocate of goodness in creed, conduct, and morals. This framework begins with instilling the obligation of enjoining right and forbidding wrong as a social duty, coupled with patience in the face of the harm that may result, and culminates in the ethics of dealing with others through humility, the condemnation of arrogance, and moderation in speech and action. These admonitions thus represent an educational and ethical fabric that is well-suited to serve as a foundation for individual development and the rectification of society.

*Correspondence author:
alaa.abdulhussein@uowasit.edu.iq

Received: 18 November 2025
Accepted: 24 December 2025
Published: 01 February 2026

DOI:

<https://doi.org/10.31185/wjfh.Vol22.Iss1.1452>



1812-0512 /© 2026 The Author(s). Published by Wasit Journal for Humanities Sciences, Wasit University. This is an open access article under the CC BY-NC-ND license (<http://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>).

Cite:

Al-Qaraghuli, A. A.-H. R. (2026). The Final Precepts in the Exhortation of Luqman al-Hakim to His Son. Wasit Journal for Human Sciences, 22(1).
<https://doi.org/10.31185/wjfh.Vol22.Iss1.1452>

Keywords: concluding admonitions; sermon; Luqman; the Wise

الوصايا الختامية في موعظة لقمان الحكيم لابنه

م.م علاء عبد الحسين راضي
جامعة واسط - كلية التربية للعلوم الإنسانية

المستخلص

تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على الوصايا الخمس الختامية- أي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر، والتواضع، والاعتدال في المشي، وخفض الصوت- التي قدمها لقمان الحكيم لابنه في سور لقمان (الآيات 17-19)، والكشف عن المبادئ والآداب والقيم الأخلاقية والسلوكية التي دعا إليها لقمان الحكيم وأكد عليها، من خلال تحليل عميق يُظهر لنا بوضوح أنها ليست مجرد وصايا عابرة، بل هي منهج تربوي متكامل ومتناسق يهدف بناء الإنسان المؤمن والداعية إلى الخير في عقيدته وسلوكه وأخلاقه، بدءاً من غرس فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كواجب اجتماعي، مقروناً بالصبر على ما ينجم من أذى، وانتهاءً بآداب المعاملة مع الناس من خلال التواضع ودمّ الكبر، والاعتدال في القول والفعل، فتلك الوصايا تُمثل نسيجاً تربوياً وأخلاقياً يصلح لأن يكون أساساً يقود إلى بناء الفرد وصلاح المجتمع.

الكلمات المفتاحية: الوصايا الختامية، موعظة، لقمان، الحكيم.

المقدمة:

إنّ القرآن الكريم مصدر التشريع الأول الذي لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وذكرها وأشار إليها، سواء أكان ذلك على وجه الإجمال أو التفصيل، ومن تلك الأمور هي القصص، ومنها قصة لقمان الحكيم الذي نقل القرآن الكريم وصاياه لابنه نقلاً مفصلاً ودقيقاً، وبأسلوب فريد يستحق أن يكون أساساً ومنهجاً حكيماً للتربية والأخلاق، ومنهلاً ينهل منها كل مربٍ وتربوي، فلم تكن وصايا لقمان الحكيم عشوائية ومجرد نصائح عابرة، بل كانت نموذجاً تربوياً شاملاً، يجمع بين الثبات على المبدأ، والقوة في المضمون، والمرونة في الأسلوب، بين تهذيب النفس، وبناء الأخلاق، وتأسيس آداب حسن المعاملة مع الناس .

لقد جاءت تلك الوصايا في القرآن الكريم في إطار قصصي مؤثر، وأسلوب الموعظة الهرمية المتدرج فيها بذكر الأهم فالذي يليه، إذ تبدأ بالمسؤولية الاجتماعية (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، فالتوجيه الأخلاق (التواضع وترك الكبر والغرور)، فأداب السلوك الظاهري والتواصل في معاملة الناس (الاعتدال في المشي وخفض الصوت)، لتقدم بذلك أنموذجاً عملياً للأبوة الحكيمة والتربية الواعية، لا يزال صالحاً لكل زمان ومكان، خالداً في كل الأجيال، وكل من يريد أن يسير على نهج هذا الحكيم عليه أن يقرأ ويدقق في قصته، ويستفيد من حكمه، ومواعظه لابنه، والسير عليها لتحصيل خيري الدنيا والآخرة، وتحقيق غاية العبودية التي خلق الله الجن والإنس لها ((وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ)) (الذاريات:56))، لبناء جيل مؤمن ذي شخصية قوية في مبادئه، لين وحكيم في تعامله، معتدل في سلوكه وخطابه، جيل قائم على العبودية لله تعالى في كل حركاته وسكناته، بعيداً عن الهفوات والزلات الشيطانية، وتلك هي غاية كل أب طموح ومرب ناجح في تربيته .

ومن هنا، يمكن القول إنّ هذه الوصايا اللقمانية، تُشكّل مادة خصبة للدراسة والتحليل، وبناءً عليه جاء هذا البحث الموسوم بـ (الوصايا الختامية في موعظة لقمان الحكيم لابنه) لِيُسلط الضوء على الوصايا الخمس الأخيرة التي جاءت في موعظة لقمان الحكيم لابنه، من خلال دراسة الآيات الختامية الثلاث (17 و 18 و 19) من سورة لقمان، ليتبين المعاني والدلالات العميقة التي

تنتظم فيها هذه الوصايا، وكيف تشكّل منهجاً متكاملًا يمازج بين واجب الدعوة إلى الخير وآداب التّعامل والسّلوّك مع النّاس، يهدف هو لبناء الشّخصيّة المسلمة المتّزنة التي تجمع بين القيام بالواجب وحسن الخلق، معتمدًا - في تحليل الدّلالات اللفظيّة والبيانيّة - على ما جاء في كتب التّفسير المعتبرة، ومستعينًا بأهمّات كتب اللغة والأخلاق، وما جاء في هذا الموضوع من الأحاديث والرّوايات عن النّبي (صلى الله عليه وآله) وأهل بيته الكرام (عليهم السّلام).

وسييسر البحث وفق منهج (تحليل تفسيري) يضمّ بين طيّاته مقدّمة وخاتمة وأربعة مباحث جاءت على النحو الآتي: خصص المبحث الأول منه للحديث عن لقمان ونسبه وأوصافه ومهنته، وهل كان نبياً أم حكيمًا؟ ويركز المبحث الثّاني على مفهوم (الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر) وتتبع آراء المفسرين في الآيات ذات الصّلة، واقتترانه بالضمانه الأخلاقية المتمثّل بـ (بالصّبر)، وربطهما جميعًا بصفة (العزيمة). والمبحث الثّالث وقفنا فيه على وصيّة لقمان في السّلوّك الأخلاقي (التّواضع وترك الكبر)، والمبحث الرّابع عرضنا فيه وصيّة لقمان لابنه في السّلوّك الظاهري في التّعامل مع النّاس (الاعتدال في المشي، خفض الصّوت).

ومن أهمّ المصادر التي اعتمدنا عليها في البحث، القرآن الكريم وتفاسيره، وكتب الأحاديث، وكتب اللغة، إلا أن الجانب الأكثر استعمالاً ما كان متعلّقًا بالتفسير. والله الموفق والمعين.

المبحث الأول: التعريف بلقمان الحكيم: اسمه ونسبه وأوصافه

أحد أبرز الشّخصيّات الذين حُذّر ذكرهم في القرآن الكريم هو لقمان الحكيم الذي اشتهر بحكمته وفطنته ونصائحه القيمة التي ألقاها لابنه، وقد شهد القرآن بحكمته بنص صريحٍ وبلغ قائلًا ((ولقد آتينا لقمان الحكمة)) (لقمان:)، إلا أنه على الرغم من ذلك لا تتوفر معلومات دقيقة عن حياة هذا الحكيم البارِع، وقد اختلف العلماء حول هويته وعصره وانتقوا على عدم نبوته، ولكن يمكن استعراض معالم إجماليّة عن شخصيّته، واسمه، وبعض أوصافه، ومكانته، استناداً إلى ما ذكره بعض العلماء في هذا المضمار.

أولاً: اسمه ونسبه: ذهب البعض هو لقمان بن باعورا، ابن أخت أيوب أو ابن خالته، وقيل كان من أولاد آزر، وعاش ألف سنة، وأدرك داوود (عليه السلام) وأخذ منه العلم، وكان يفتي قبل مبعثه فلما بعث قطع الفتوى، فقيل له؟ فقال له: ألا أكتفي إذا اكتفيت، وقيل كان قاضياً في بني إسرائيل (الزمخشري، 1995م/1415هـ)، وذهب آخرون إنّه ابن ناحور بن تارح، وهو آزر أبو إبراهيم، وقال غيرهم إنّه ابن عنقاء بن سرون (القرطبي، 2001م/1422هـ).

والآراء كثيرة فيما يتعلق بنسبه، ومن البديهي أنّ ترجيح أحد الآراء على غيرها ليس سهلاً ولا ضرورة يتوقف عليها البحث؛ ولكن يمكن القول بأن لقمان لم يكن ذا نسب معروف ولا حسب، ولم يؤت الحكمة بسبب موهبة أو صفة شخصيّة؛ بل اكتسبها لإيمانه بالله وقرّبه منه، وعمق تفكيره وبصيرته، وحسن ظنّه وبقينه، كما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) (إن لقمان كان عبداً كثير التّفكير، حسن الظن، كثير الصّمت، أحبّ الله فأحبّه، فمن عليه بالحكمة) (الترمذي، 1992م، ج1، ص373)، ويدل على ذلك أيضاً ما ورد عن إمامنا الصادق (عليه السلام) في رواية قال فيها (أما والله، ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال، ولكنه كان رجلاً قوياً في أمر الله متورعاً في الله، ساكتاً سكيناً، عميق النّظر...) (الريشهري، 1390ش. ص.

ثانياً: أوصافه: وأما ما ورد من أوصافه في بعض الأخبار قال سعيد بن المسيب: كان لقمان أسود من السودان مصر، مشقق الرجلين ذا مشاير: أي عظيم الشفتين، حتى أنه قال لرجل أسود: لا تحزن من إنك أسود، فإنه كان من خير الناس ثلاثة من السودان: بلال، ومهجع مولى عمر، ولقمان، كما أنه قال لرجل ينظر إليه: إن كنت تراني غليظ الشفتين، فإنه يخرج من بينهما كلام رقيق، وإن كنت تراني أسود فقلبي أبيض (القرطبي، 2001م/1422هـ).

ومن هذه الرواية المذكورة آنفاً نلاحظ أن لقمان الحكيم كان يفتقر إلى الجمال الظاهري، غير أن ذلك لم يمنع ما كان يتصف به من الحكمة والفتنة؛ إذ الإنسان ليس بشكله ولا بجماله، لكن بقلبه وعقيدته، وحكمته، فهذا هو لقمان الحكيم ليس جميلاً، لكن حكيماً محبوباً عند الله.

ثالثاً: صفاته: (أخرج ابن أبي حاتم عن أبي الدرداء أنه ذكر لقمان الحكيم: أنه كان رجلاً صمصاماً سكيناً، طويل التكر، عميق النظر، لم ينم نهاراً قط، ولم يره أحد يبيزق، ولا يتحنح، ولا يضحك، كان لا يعيد منطقاً نطقه، بالإضافة إلى الحكمة والفتنة) (السيوطي، 2001م/1422هـ، ج8، ص84).

رابعاً: مهنته: اختلف العلماء كثيراً في مهنته ونسب له البعض أكثر من مهنة فقيل: إنه كان نجاراً، وقيل خياطاً، وقيل كان راعياً، كان يحتطب لمولاه كل يوم حزمة حطب (ابن عطية، 2004م/1425هـ—)، وهناك أقول أخرى حول عمله ومهنته كالتطباة ومعرفة الأمراض وغيرها، وكل هذه الأقوال هي مجرد احتمالات؛ فربما عمل بها لقمان جميعاً بحكم أنه كان عبداً مملوكاً، ومهما يكن الأمر فإنه -وبما لا يدع مجالاً للشك- لا يخرج عن نطاق كونه كان بسيطاً جداً، إذ لم يكن وزيراً ولا خليفة، بل كان إنساناً عادياً جداً، على رغم من حكمته العظيمة.

ولكن يبقى التساؤل الأهم وهو هل كان لقمان نبياً أم حكيماً؟

ذكر الله تعالى لقمان في قوله ((وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ)) (لقمان:12)، في سورة سُمِّيَتْ باسمه هي سورة (لقمان)، ولم يرد في القرآن سورة تحمل اسم رجل إلا كان نبياً كسورة محمد وإبراهيم ويونس ويوسف وهود ونوح، إلا سورة لقمان فقد نصت الآية على أن الله سبحانه آتاه الحكمة، وأشارت إلى مكانته وعظمة مقامه، وسجلت وصيته تقريراً بها وتقريراً لها. إن القرائن تبين أن لقمان لم يكن نبياً، بل كان رجلاً ورعاً مهذباً انتصر في ميدان جهاد النفس، فكان أن فجر الله تعالى في قلبه ينباع العلم والحكمة (الشيرازي، 2013م/1434هـ)، وبناءً عليه فالمشهور عند جمهور العلماء أنه كان ولياً ولم يكن نبياً، قال ابن كثير: (اختلف السلف في لقمان: هل كان نبياً أو عبداً صالحاً من غير نبوة؟ على قولين، الأكثرون على الثاني؛ لأن كونه عبداً قد مسه الرق ينافي كونه نبياً؛ لأن الرسل كانت تبعث في أحساب قومها؛ ولهذا كان جمهور السلف على أنه لم يكن نبياً، وإنما ينقل كونه نبياً عن عكرمة) (ابن كثير، 1998م/1419هـ، ج6، ص334)، وبمثله قال الرّمخشري: (وأكثر الأقاويل أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً، وثقل عن ابن عباس قوله: لقمان لم يكن نبياً ولا ملكاً؛ ولكن كان راعياً أسود، فرزقه الله العتق، ورضي قوله ووصيته، فقص أمره في القرآن لتمسكوا بوصيته) (الرّمخشري، 1996م/1385هـ، ج5، ص11) وقال البغي: (واتفق العلماء على أنه كان حكيماً، ولم يكن نبياً، إلا عكرمة، فإنه قال: كان لقمان نبياً، وتفرّد بهذا القول، وقال بعضهم خير لقمان بين النبوة والحكمة، فاختار الحكمة) (البغي، 1997م/1417هـ، ج6، ص286)، فمن يتصف بمثل هذه الصفات، ويتمتع بمثل هذه الحكمة والزهد والفتنة، ليس غريباً عليه أن يُخَيَّرَ بمثل هكذا أمر عظيم ألا وهو النبوة، ليكون مبلغاً لرسالة التوحيد وعبادة الله عز وجل.

فتحصل مما تقدم في صدر الكلام أن لقمان لم يكن نبياً لأنه لم يُمتن عليه بوحى وبكلام الملائكة، والاقتصار على أنه أوتي الحكمة يومئذ إلى أنه ألهم الحكمة ونطق بها، ولأنه ذكر تعليمه لابنه قال تعالى ((وهو يعظه)) (لقمان: 13)، وذلك مؤذن بأنه تعليم لا تبليغ تشريع (الظاهر بن عاشور، 1984م)، فهو وإن لم يؤت أي كتاب سماوي؛ ولكن الله وهبه الحكمة وفضله بها على غيره، ويكفي في عظمة مقامه أن الله تعالى قرن مواعظه بكلامه، ورسول الله (صلى الله عليه وآله) والأئمة المعصومين (عليهم السلام) ينقلون حكمته.

المبحث الثاني: الدعوة إلى الخير والتخلي بالصبر في وصية لقمان

المطلب الأول: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في وصية لقمان:

بعد أن أتم لقمان الحكيم بيان أصول العقيدة انتقل إلى تعليمه أصول الأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة وأهم دستور وواجب اجتماعي المتمثل بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر -الذي يعدّ أخصّ أوصاف المؤمن- فقال لابنه: ((وأمر بالمعروف وانه عن المنكر)) (لقمان: 13)، وفي هذا الأمر إشارة إلى مشروعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأمم السابقة، فضلاً عن كونه من سمات وميزات أمة النبي الخاتم (صلى الله عليه وآله) -على سائر الأمم السابقة- فهي مأمورة بذلك كما جاء في قوله تعالى ((ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)) (آل عمران: 104)، حيث قرن فلاح المؤمنين بالقيام به، وقد وصف الله عزّ وجلّ أهل الإيمان والمؤمنين بأنهم ((يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر)) (التوبة: 71)، و((الأمرون بالمعروف والنهون عن المنكر والحافظون لحدود الله)) (التوبة: 112)، ((وأمر بالمعروف ونهوا عن المنكر)) (الحج: 41)، وأتى عليهم لقيامهم بذلك حيث قال ((كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر)) (آل عمران: 110)، والآيات في هذا الباب كثيرة.

والأحاديث التي وردت في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة أيضاً ومنها قوله (صلى الله عليه وآله) (لتأمرن بالمعروف، ولتنهئن عن المنكر، أو لئسلطنّ عليكم شراركم؛ فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم) (الكليني، 1367ش، ج5، ص. 56). وهكذا فإنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مبدأ أساس وركيزة مهمة في بناء وتربية الأمة -أيّاً كانت- هي؛ لأنها لا تصلح بدونها، وله الأثر الكبير في ضبط المجتمع وتهذيبه، وتوجيه الأفراد نحو التمسك بالفضائل والأفعال الحسنة، والابتعاد عن الرذائل والأفعال السيئة، فضلاً عن تقوية الوازع الديني من خلال الالتزام بتعاليم الدين وأحكامه.

أما المعروف في اللغة: فهو مأخوذ من الفعل عَرَفَ، المصدر منه المعرفة والعرفان، أي إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره، وهو أخصّ من العلم (الزغاب، 1427هـ، ص. 560)، وهو في الأصل: اسم لما يعرفه القلب ويطمئن إليه، وتسنن إليه النفس قال تعالى ((وصاحبهما في الدنيا معروفاً)) (لقمان: 15)، والمعروف ضدّ المنكر، كما يُطلق على الجود، وقيل: هو اسم لما تبذله وتسديه (الجوهري، 1407هـ/1987م. ابن منظور، 1405هـ، الفيروز آبادي، 2005م/1426هـ).

وأما المنكر في اللغة: من أنكر، وهو ضد عرف، وهو اسم لما تنكره النفوس وتشمئز منه ولا تعرفه، والمنكر من الأمر: خلاف المعروف، قال تعالى ((إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)) (لقمان: 19)، أي أقبح الأصوات (ابن منظور، 1405هـ)، والمنكر أصله أن يرد على القلب ما لا يتصوره، وذلك ضرب من الجهل قال تعالى ((فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم)) (هود: 70)، ((دخلوا

عليه فعرّفهم وهم له منكرون)) (يوسف: 58)، وقد يُستعمل ذلك فيما ينكر باللسان، وسبب الإنكار باللسان هو الإنكار باللب، لكن ربما ينظر اللسان الشّيء وصورته في القلب حاصلة، ويكون في ذلك كاذباً (الزّاغب، 1427هـ).

وأما معناهما اصطلاحاً فقد ذكر العلماء تعريفات كثيرة متقاربة في المعنى، ومن جملتها ما ذكره بأنّ المعروف: اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله، والتّقرب إليه، والإحسان إلى النّاس، وكل ما ندب إليه الشّارع ونهى عنه من المحسنات والمقبحات (ابن منظور، 1405هـ، ج9، ص240)، والمنكر: كل ما قبحه الشّرع وحرّمه وكرهه (ابن منظور، 1405هـ، ج5، ص233)، وقالوا أيضاً المعروف هو: كل ما يحسن في الشّرع، والمنكر: ما ليس فيه رضا لله من قول أو فعل، والمعروف ضده (الجرجاني، 2003م/1424هـ، ص. 283، 303)، وقيل أيضاً المعروف هو: اسم لكل فعل يُعرف بالعقل أو الشّرع حسنه، والمنكر ما يُنكر بهما (الزّاغب، 1427هـ، ص. 561).

والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر هو السّعي فيهما والتّشهير لهما، وهو أعظم مراسم الدّين، والمهم الذي بعث الله لأجله التّبيين، ونصب من بعدهم الخلفاء والأوصياء، وجعل نوابهم أولي التّفوس القديسة من العلماء؛ بل هو القطب الذي تدور حوله أرضية الملل والأديان؛ لهذا السبب ورد الحثّ عليه ومدحه والتّريغيب به (الراقي، 2004م/1425هـ) إذ عُد ذلك ممّا عزمه الله وأمر به.

ولا بد للأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر من اشتراط العلم الذي يتوقف قيام هذا العمل الخطير عليه؛ لأنّ الجاهل بهما قد يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ويؤدي إلى أمور أشدّ نكارة من المنكر الذي يريد إبطاله (الغزالي، د.ت). البيضاوي، 1418هـ)، وهكذا فإنّ هذه الفريضة أو الشّعيرة مهمّة تستلزم من القائم بهما أن يكون عالماً بالمعروف ليأمر به، وعالماً بالمنكر لينهى عنه، والأمر بما لا يتمّ الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر إلا به، من الحكمة والزّفق والصّبر (السّعدي، 2000م/1420هـ). ثم إنّ الأمر من لقمان لابنه بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يقتضي إبتان الأمر وانتهائه في نفسه أولاً؛ لأنّ الذي يأمر بفعل الخير وينهى عن فعل الشّر، يعلم ما في الأعمال من خير وشر، ومصالح ومفاسد، فلا جرم أن يتوقاها في نفسه بالأولوية من أمره النّاس ونهيه إيّاهم (فإنّ من لا يأمر ولا يأنمر، وينهي ولا يزدجر، لا يؤثر وعظه، ولا يثمر إرشاده) (راضي، 2024م، ص. 36)، فهذه كلمة جامعة من الحكمة والتّقوى؛ إذ جمع لابنه الإرشاد إلى فعل الخير وبثّه في النّاس، وكفّه عن الشّر وزجره النّاس عن ارتكابه (ابن عاشور، 1984هـ)، حيث لا يكفي أن يكون الإنسان في طريق الحقّ وحسب؛ بل لا بدّ له من دعوة الآخرين للسير في طريق الحقّ (قراءتي، 2014م/1435هـ، ج7، ص. 229).

المطلب الثّاني: الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر ملازم للاقتران بالصّبر:

ولما كان سلوك طريق الدّعوة إلى الله عزّ وجلّ لا يخلو من المشقة والأذى أعقب ذلك بأنّ أمره بالصّبر على ما يُصيبه فقال ((وإصبر على ما أصابك)) (لقمان: 13)، والصّبر في اللغة نقيض الجزع، وأصله حبس أو إمساك في ضيق، والصّبور: القادر على الصّبر، والصّبار: يقال إذا كان فيه ضرب من التّكلف والمجاهدة (الزّاغب، 1427هـ. ابن فارس، 1972م/1392هـ)، أمّا اصطلاحاً: فهو حبس النّفس على ما يقتديه العقل والشّرع، أو عمّا يقتضيان حبسها عنه (الزّاغب، 1427هـ، ص. 565)، وقيل (الصّبر: ترك الشّكوى من ألم البلوى لغير الله لا إلى الله) (الجرجاني، 2003م/1424هـ، ص. 172)، وقيل أيضاً (هو ثبات النفس عند اضطرابها في الشّدائد والمصائب) (الراقي، 2004م/1425هـ، ج2، ص. 438).

فالصبر إذا بمجمل معانيه ومجالاته تعبير عن قوة الإرادة والثبات لدى الإنسان، ودليل على كمال عقله، وبعده عن الجزع والسخط والشكوى، وتعامله مع مشاق الحياة ومشاكلها بهدوءٍ وحكمة ومسؤولية يعكسان استقراره النفسي والروحي.

إن من المسلم أنّ الداعي إلى الله عزّ وجلّ لا بد وأن يُبتلى وأن يحصل له الأذى والضّرر أحياناً مقابل أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، كما يُستفاد ذلك من تفسير أمير المؤمنين (عليه السلام) لمعنى الآية حيث قال ("واصبر على ما أصابك": من المشقة والأذى في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) (المجلسين، 1983م/1403هـ، ج66، ص359). ومن المسلم أيضاً أن أصحاب المصالح والمتسلطين والأنانيين لا يستسلمون بهذه السهولة، بل يسعون إلى إيذاء واتّهام الأمرين بالمعروف والنّاهين عن المنكر، ولا يمكن الانتصار على هذه المصاعب والشدائد والعقبات بدون الصبر والتحمل والاستقامة أبداً (الشيرازي، 2013م/1434هـ)، ولهذا أمر الله الرسل -وهم أئمة الأمرين بالمعروف والنّاهين عن المنكر- بالصبر على ما يصيبهم نتيجة لإعلانهم كلمة الحق، كما قال تعالى لخاتم الرسل ((فاصبر كما صبر أولى العزم من الرسل)) (الأحقاف: 35).

ومن هذا المنطلق ذكر بعض أهل التأويل: ووجه تعقيب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بملازمة الصبر، أنهما قد يجران للقائم بهما معاداة من بعض الناس أو أذى من بعض، فإذا لم يصبر على ما يصبه من جزاء ذلك أو شك أن يتركهما (ابن عاشور، 1984هـ)، فجاءت وصية لقمان -الأب الحكيم- لولده بالصبر عقب وصيته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لتمام العلم بحصول المشقة على النفوس وأن المغير يؤذى أحياناً مقابل أمره ونهيه، فلا بد له -للتسير في طريق الحق وأداء وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- من أن يبني ذاته ويملاً نفسه بالإيمان ويتحلى بالصبر وسعة الصدر، ويكون فرداً قادراً على تحمل المسؤولية الاجتماعية، ولا يستسلم للعوائق والصعاب، وللصبر على ما يعرض للإنسان في هذا الطريق قيمته الخاصة ولا يوفق له إلا أهل العزائم ((إن ذلك من عزم الأمور)).

المطلب الثالث: اختتام الوصايا الثلاث (الأمر، النهي، الصبر) بصفة (العزيمة):

ولتأكيد عظم هذه الوصايا الثلاث وأهميتها وأنّ المضي بها ليس بالأمر السهل وتتطلب قوة إرادة وثبات صبر، خُتمت بصفة العزيمة للإشارة إلى شمولية الحكم على الوصايا الثلاث بتصنيفها الجماعي من عزم الأمور كما سيتضح من تتبع بعض آراء المفسرين آنفاً.

فأمّا اسم الإشارة (ذلك) في قوله تعالى ((إن ذلك من عزم الأمور)) (لقمان: 17)، فإنّه اختلف أهل التأويل هل هو عائد على الصبر أم على كل المذكور قبله؟ ذهب بعض المفسرين إلى أنّه عائد إلى جميع ما تقدم من الطاعات المذكورة قبله من إقامة الصلاة والأمر، بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على ما أصاب (الطبري، 2001م/1422هـ. ابن عاشور، 1984هـ. الواحدي، 1994م/1415هـ. القرطبي، 2001م/1422هـ)، ويرى بعضهم أنّ التعبير بـ(ذلك) إشارة إلى الصبر على أذى الناس والتحمل (ابن كثير، 1998م/1419هـ. الشيرازي، 2013م/1434هـ)، والإشارة البعيدة للتعظيم والترفع، ويحتمل أن يعود إلى كل الأمور والمسائل التي قبله، إلا أنّ هذا الأخير ليس في محله؛ لتكرر عدّ الصبر من عزم الأمور في كلامه تعالى كقوله ((ولمن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور)) (الشورى: 43)، وقوله ((إن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور)) (آل عمران: 186)، وهذا يدعم ويقوي الاحتمال الأول (الطبطبائي، 1997م، ج16، ص. 218، الشيرازي، 2013م/1434هـ).

والعزم لغة: مصدر من عَزَمَ، وهو أصل يدل على الصَّريمة والقطع، يقال: عَزَمْتَ عليك إلا فعلت كذا، أي جعلته أمراً عزمياً، أي لا متنية فيه، فالعزم ما عقد عليه قلبك من أمرٍ أنت فاعله، ويقال: ما لفلان عزيمة، أي لا يمكنه أن يصرم الأمر، بل يختلط ويتردد، والعزم: الإرادة المؤكدة، والجمع عزائم (الجوهري، 1407هـ/1987م. ابن فارس، 1392م/1972هـ. ابن منظور، 1405هـ—)، ولم يخرج التعريف الاصطلاحي للعزم عن معناه اللغوي وذكروا له تعريفات كثيرة مقاربة وافية، قال الراغب (العزم والعزيمة: عقد القلب على إمضاء الأمر) (الزَّاعِب، 1427هـ—، ص. 565)، وقال الجرجاني (والعزم: جزم الإرادة بغير تردد) (الجرجاني، 2003م/1424هـ—، ص. 16)، وقيل (العزم: هو القصد الجازم المتصل بالفعل، وحقيقته: استجماع قوة الإرادة على الفعل) (الجوزية، 1996م/1416هـ—، ج1، ص152)، ومن العزم والإباء والدين وعلو الهمة وقوة النفس والإرادة، أن ترضى وتسكن عن الحرام؛ بل وعن سؤال الخلق وإن كان حلالاً (مغنية، 2005م/1426هـ).

وكيف كان المعنى فإنَّ الجزء الحاضر في جملة ((إن ذلك من عزم الأمور)) أنها قد ألحقت بعد أوامر لقمان الثلاثة، وقد جاءت في سياق أسلوب ترغيب من لقمان يهدف من خلاله إثارة الدافع لدى الابن من أجل قبول الحق المتمثل بهذه الأوامر الثلاثة والعمل بها والثبات عليها؛ فإنَّ هذه الأوامر ممَّا عزمه الله عزَّ وجلَّ وأمر به عباده، أي قطعه قطع إيجاب وإلزام (الزمخشري، 1996م/1385هـ. ابن كثير، 1998م/1419هـ. الواحدي، 1994م/1415هـ)، ومنه الحديث ((إنَّ الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه)) (مصدر)، ويحتمل أن يريد أن ذلك من مكارم الأخلاق، وعزائم أهل الحزم، والسالكين طريق النجاة (القرطبي، 2001م/1422هـ. الشوكاني، 1414هـ).

(وأما كون الصبر من العزم إنما هو من حيث إنَّ العقد القلبي ما لم ينحل وينفصم، ثبت الإنسان على الأمر الذي عقد عليه، فالصبر لازم الجد في العقد والمحافظة عليه، وهو من قدرة النفس وشهامتها) (الطبطبائي، 1997م، ج16، ص. 218).
وخلاصة القول: تظهر كيف أن وصية لقمان الحكيم لابنه تقدم خارطة طريق للعمل الإصلاحي المتوازن في الدعوة إلى الخير بـ(الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وتربطها بالضمانة الأخلاقية (الصبر) التي تقوي إرادة الداعي في المواقف الصعبة، وتثبت أمام المحن والأذى الذي يلحقه من ممارسة الأمر والنهي، وتمنعه من اليأس ومخاطر الانفعال في سبيل الإصلاح، ثم تختتمها مع تأكيد أنها (من عزم الأمور)؛ لأن من يأمر وينهى بلا صبر، سريعاً ما يترك المجال عند أول عقبة، فالصبر هو المحرك الذي يضمن استمرارية العمل الدعوي.

المبحث الثالث: السلوك الأخلاقي في وصية لقمان:

وفي هذا الجانب انتقل لقمان الحكيم بآبائه إلى الآداب والسلوكيات التي يجب أن يسير عليها في معاملته الناس، فنهاه عن احتقار الناس والاستخفاف بهم، وعن التفاخر عليهم تكبراً وتعاضماً، وهذا يقتضي أمره بإظهار مساواته مع الناس وعدِّ نفسه كواحد منهم حيث قال ((ولا تُصعِر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً)) (لقمان: 18)، وبناء على ذلك، فإنَّ لقمان الحكيم يشير هنا إلى خصلتين سلبيتين ومذمومتين ينبغي للإنسان تركهما والتخلي عنهما بعدما من الصفات السيئة والسلوكيات غير المقبولة في ميزان مكارم الأخلاق التي تعكس سمو النفس ورقيها، فجاء النهي عنهما ضمن جملة وصاياه لابنه .

المطلب الأول: النهي عن التكبر وعدم الاهتمام بالآخرين:

حيث قال ((ولا تُصعر خدك للناس))، التعر في اللغة العربية من مادة (صَعَرَ) التي تشير إلى إظهار الكبر والغرور، وهي في الأصل ميل في العنق جاء في العين (الصَّعَر: ميل في العنق، وانقلاب في الوجه إلى أحد الشَّقَيْن) (الفرهيدي، 1409هـ، ج1، ص298)، والتَّصعير: الميل في الخَد -خاصة- عن النَّظر إلى النَّاس تهاوناً من كبر وعظمة (ابن فارس، 1404هـ، ج3، ص. 288. الطريحي، 1362ش، ج3، ص365)، وهذا معنى قول مولانا الصَّادق (عليه السلام) في تفسير هذه الآية قال (ولا تُصعر خدك للناس: أي ولا تَمَلَّ وجهك من النَّاس بكل، ولا تُعرض عَمَّن يُكلمك استخفافاً) (الطبري، 1995م/1415هـ، ج8، ص. 87)، إذ التَّكبر لا يميِّز صاحبه؛ بل ينزله من أعين النَّاس، ويجعله غير محبوب بينهم، على عكس التَّواضع الذي يجعل صاحبه محبوباً بين النَّاس؛ لما فيه من أُلْفة ومحبة.

ومن هنا جاء النَّهي من لقمان لابنه بما معناه: أي لا تمل بوجهك عنهم تكبراً؛ بل أقبل عليهم، وتواضع لهم (الزمخشري، 1987م/1407هـ)، وقال بعضهم إنَّ المعنى أي لا تمل خدك للنَّاس كبراً عليهم، وإعجاباً بنفسك، واحتقاراً لهم؛ بل أقبل عليهم متواضعاً مؤنساً ومستأنساً، وإذا حدَّثك أصغرهم فأصغ إليه حتى يكمل حديثه، كذلك كان النَّبي (صلى الله عليه وآله) يفعل (القرطبي، 2001م/1422هـ)، فكان يجلس مع النَّاس دون أن يتمكن أحدٌ من التَّمييز بينه وبينهم، فإذا دخل أحدهم مجلسه كان يسأل: أيكم هو رسول الله؟ وقيل أيضاً إنَّ المعنى لا تحقر النَّاس، فالتَّهني عن الإعراض عنهم احتقاراً لهم، لا عن خُصوص مُصاعرة الخَد، فيشمل الاحتقار بالقول والشَّتْم وغير ذلك، فهو قريب من قوله تعالى ((ولا تقل لهما أفٍ)) (الإسراء: 23) (ابن عاشور، 1984هـ).

إذاً فالتَّواضع يدخل في دائرة التكافؤ الاجتماعي؛ فلا تكون هناك فوارق طبقيَّة بين طبقات المجتمع المختلفة؛ لأنَّ الله عزَّ وجل خلقنا متساويين في الحقوق والواجبات، ولا فضل لأحد على آخر إلا بالتَّقوى؛ فجاءت وصية لقمان الحكيم لابنه لتتوافق مع هذا المبدأ وتؤكد على أهميَّة التَّواضع في معاملة الآخرين وأثره في ترسيخ قيم تربية إجابيَّة في الفرد والمجتمع.

المطلب الثاني: النَّهي عن التَّبخر والعجب بالنَّفْس:

لما كان التَّبخر في المشي من مظاهر النَّعالي والعجب، بحيث يمكن تشخيص جزء مهم من أخلاق الإنسان من أسلوب مشيته؛ نجد أن لقمان الحكيم يحذر ابنه -بتعبير واضح ولطيف- من النَّفاخر والتَّبخر، وذلك في قوله تعالى ((ولا تمش في الأرض مرحاً إنَّ الله لا يحب كل مختال فخور)) (لقمان: 18)، ففي الآية إشارة إلى النَّهي عن التَّكبر والغرور، وتدعو في قبال ذلك إلى التَّواضع في السُّلوك والاعتدال في المشي؛ لأنَّه أول صفات عباد الرحمن كما جاء في قوله تعالى ((وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً)) (الفرقان: 63).

قال الراغب: المرح شدَّة الفرح، والتَّوسع فيه (الزَّاعب، 1427هـ، ص. 465)، وهو فرط النَّشاط والمشى فرحاً في غير شغلٍ وفي غير حاجة، فالمرحُ مختال في مشيته، ويظهر ذلك في المشي تبخترًا واختيالاً؛ فلذلك سمي المشي مرحاً كما في الآية (القرطبي، 2001م/1422هـ. الطاهر بن عاشور، 1984م)، فالمعنى في وعظ لقمان لابنه كما ورد في الآية: أي لا تمش في الأرض تبخترًا واختيالاً، فهو نهي عن استعظام الإنسان نفسه بأكثر ممَّا هو عليه، لمثل البطر والأشر والكبر والخيلاء، فخرًا بالنَّعم ناسياً المنعم، معجباً بنفسه (الطبطبائي، 1997م. السعدي، 2000م/1420هـ).

إنّ الإنسان حين يخلو قلبه من الشّعور بالخالق القاهر فوق عباده، تأخذه الخيلاء بما يبلغه من ثراء أو نعمة أو سلطان و.... لو تذكر أنّ ما به من نعمة فمن الله، وأتّه ضعيف أمام حول الله، لطامن من كبريائه، وخفف من خيلائه، ومشى على الأرض هوناً، لا تيهأ ومرحاً (سيد قطب، 2003م/1423هـ)، وقد ورد عن الإمام الصادق (عليه السّلام) في مقام البيان لهذه الآية الكريمة حيث قال (هو الرّجل يمشي بسجيته التي جُبل عليها، لا يتكلف ولا يتبختر) (المجلسي، 1983م/1403هـ، ج24، ص132)، وفي حديث آخر عن النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله) أنّه نهى أن يختال الرجل بمشيته وقال (من لبس ثوباً فاخْتال فيه، خسف الله به من شفير جهنّم، فكان قرين قارون؛ لأنّه أول من اختال فحُسف به وبداره الأرض، ومن اختال فقد نازع الله في جبروته) (الصدوق، 1417هـ، ص. 514).

ولا يخفى أنّ مراد لقمان لم يكن مسألة الإعراض عن النّاس أو المشي بغرور وعجب فحسب؛ بل المراد محاربة كل مظاهر التّكبر والغرور، ولما كانت هذه الصّفات تظهر في مقدمة السلوكيات اليوميّة، فإنّه وضع إصبعه -أي لقمان- على مثل هذه المظاهر الخاصّة (الشّيرازي، 2013م/1434هـ)، فضلاً على ذلك أكد لقمان على أهمية التّواضع وعدم التّعالى والكبر والتّباهي بالنّفس، وشدد على ضرورة لين الجانب في سلوك الإنسان وتصرفاته في حياته وتعاملاته مع النّاس دون الفخر والتّعالى عليهم، يقول الإمام الصادق (عليه السّلام) (التّواضع أصل كل خير نفيس، ومرتبة رفيعة، وأصل التّواضع من جلال الله وهيبته وعظّمته، وليس لله عزّ وجل عبادة يقبلها ويرضاها إلا وبابها التّواضع، ولا يعرف ما في معنى حقيقة التّواضع إلا المقربون من عباده المستقلين بوحدانيتها، قال الله عزّ وجل "وعباد الرّحمن الذين يمشون على الأرض هوناً" (الفرقان: 63)) (المجلسي، 1983م/1403هـ، ج72، ص. 298).

إذا فالتّواضع لا يعني اعتزال النّاس وعدم مخالطتهم؛ ذلك لأن التّواضع لا يُنقص من منصب من هو كبير بعلمه ودينه، إذ كان الإمام علي (عليه السّلام) يحمل الثّمر والملح بيده ويقول: لا ينقص الكمال من كماله، ما جرّ من نقع إلى عياله (المجلسي، 1983م/1403هـ، ج41، ص. 54).

وتأكيداً لأهميّة التّواضع ونبذ التّفاخر والكبر، ختم لقمان عظته لابنه بذكر علة التّهي عن التّصعّر والمشي مرحاً كأسلوب لحصول الاقتناع بها وقبولها والانقياد لها حيث قال ((إنّ الله لا يحب كل مختالٍ فخور)) (لقمان: 18)، باعتبار أنّ مجرد إعراض الوجه عن النّاس تكبراً، والمشي على الأرض مشي البطر والتّكبر، كفيل بحصول المقّت من الله؛ إذ بهذين التصرفين استحق وصف المختال الفخور، وما دام الله تعالى لا يحب هذا الخصال وهي مذمومة عنده؛ فالأجدى أن يتخلى عنها الفرد.

والمختال من كان ذا خيلاء وكبر، أي: مختالاً في نفسه، معجباً بها، متكبّراً على النّاس، وأما الفخور: فهو المفخر على عباده بما أنعم الله عليه من آلائه، وبسط له من فضله، ولا يحمدّه على ما أتاه من طوله وإنعامه، فيرى نفسه أنّه خير منهم، فهو في نفسه كبير، وهو عند الله فقير، وعند النّاس بغيض (ابن كثير، 1998م/1419هـ. الواحدي، 1994م/1415هـ. الطبري، 2001م/1422هـ)، والفرق بين المختال والفخور، أن الأولى إشارة إلى التّخيلات الذّهنيّة للكبر والعظمة (ويكون في السّلوک والفعل)، أمّا الثّانية فهي تشير إلى أعمال التّكبر الخارجيّة (ويكون في القول) (الشّيرازي، 2013م/1434هـ)، وكلاهما يُفضيان إلى نفور النّاس وابتعادهم، فالمختال يؤذّي بمظهره وسلوكه وأفعاله، والفخور يؤذّي بكلامه.

ومما لا شك فيه أن الختام بـ ((إن الله لا يحب كل مختالٍ فخور)) يحمل في طياته دلالة تحذيرية شديدة اللهجة، فهو يوضح أن الله عز وجل لا يحب المتكبرين المتفاخرين بأنفسهم أو ما يملكون، وهذا السلوك مذموم وممقوت عند الله عز وجل، ففي حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) (من مشى في الأرض اختيالاً، لعنته الأرض ومن تحتها ومن فوقها) (الحر العاملي، 1414هـ، ج15، ص. 382)، وورد عن الإمام الباقر (عليه السلام) أنه قال (قال رسول الله صلى الله عليه وآله): ويل لمن يختال في الأرض يعارض جبار السموات والأرض) (الصدوق، 1368هـ، ص. 275).

المبحث الرابع: السلوك الظاهري في معاملة الناس في وصية لقمان

بعد أن بين لقمان لابنه - في الآية المذكورة آنفاً - آداب السلوك الأخلاقي مع الناس بالنهي عن صفتين مذمومتين جداً ينبغي التخلي عنهما، رسم له - في الآية التي تليها - آداب السلوك الظاهري القائم على حسن المعاملة مع الناس، وذلك بالأمر بصفتين وسلوكين أخلاقيين إيجابيين يلزم التحلي بهما، إحداهما: الاعتدال في المشي، والأخرى: الاعتدال في الكلام.

المطلب الأول: الوسطية والاعتدال في المشي:

يقول لقمان الحكيم لابنه واعظاً إياه ((واقصد في مشيك)) بعد الاجتناب عن المرح فيه، وهو أمر بالتوسط والاعتدال، من القصد وهو بين الإسراف والتقتير (الجوهري، 1407هـ/1987م، ج2، ص525)، (فلما نهاه عن الخلق الذميمة؛ رسم له الخلق الكريم الذي ينبغي أن يستعمله، فقال "واقصد في شيك": أي توسط فيه، والقصد ما بين الإسراع والنبط) (القرطبي، 2001م/1422هـ، ج14، ص. 72)، والمعنى أي ليكن مشيك قسداً، لا سريعاً يُذهب بهاءك؛ لأن السرعة المفرطة في المشي قد تؤثر على مظهر المؤمن وهيبته كما ورد في الرواية عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) قال (سرعة المشي تذهب ببهاء المؤمن) (المجلسي، 1983م/1403هـ، ج73، ص. 302)، وجاء عن أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) (المشي المستعجل يُذهب ببهاء المؤمن ويطفئ نوره) (الحراني، 1404هـ، ص371).

فالمحصلة - بناءً على ما سبق - أن المراد بالقصد في المشي أي امش مشياً مقتصداً، ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط؛ بل عدلاً وسطاً بين بين (ابن كثير، 1998م/1419هـ)، وهو ظاهر في رعاية الاعتدال والتؤدة في المشي، مشي يناسب الوقار والسكينة والزئانة كقوله تعالى ((يمشون على الأرض هوناً)) (الفرقان: 63).

ويحتمل أن يكون المراد به المشي بقصد كذلك، وهذا الأمر يعم جميع الأمور التي تصدر من الإنسان ف (القصد ليس في المشي فقط؛ بل في كل عمل نقوم به) (تفسير النور، 2014م/1435هـ، ج7، ص. 238)، وعلى هذا فإن لقمان الحكيم أمر ابنه أن يجعل لمشييه هدفاً ينبغي الوصول إليه، وتحقيقه في سكينة ووقار، فلا يدب دبيب المتماوتين (الدال على الفخر والكبر)، ولا ينثب وثيب الشطار (الدال على الخفة والبطش) (الزمخشري، 1407هـ/1987م، ج3، ص. 497)؛ لأن المشية القاصدة إلى هدف لا تتلأأ ولا تتخايل ولا تتبختر، وإنما تمضي لقصدها في بساطة وانطلاق (سيد قطب، 2003م/1423هـ، ج6، ص487).

المطلب الثاني: خفض الصوت وحسن الخطاب:

إن التوسط والاعتدال لا يقتصر على المشي والسلوك فقط، وإنما هو سياق ومنهج ينبغي مراعاته في كل شيء، بل حتى في طريقة الكلام والخطاب كما يفهم ذلك من وصية لقمان لابنه حيث دعاه إلى خفض الصوت وحسن الخطاب قائلاً ((واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)) (لقمان: 19)، وكلمة واغضض مشتقة من (غض) وتعني التقيص وتطلق غالباً على

الإنقاص والتقليل والخفض، يقال غَضَّ من صوته أي خفضه وكَفَّه، وكل شيء كَفَفْتَهُ فقد غَضَضْتَهُ (الجوهري، 1987م/1407هـ)، وأصل (الغض) الحطُّ من منزلة عليّة إلى منزلة دنيّة، فكأنه قال وحطَّ صوتك من حال الارتفاع إلى حال الانخفاض، إخبأتاً لله وتطامناً لأولياء الله (شرف الدين، 1420هـ—)، ورعاية لحرمة الآخرين وقد مدح الله تعالى الذين يغضون أصواتهم في حضرة الرسول (صلى الله عليه وآله) فقال عزَّ من قائل ((إنَّ الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى)) (الحجرات: 3)، كما حذرهم قبل ذلك بعدم رفع الصوت عنده حيث قال ((لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض)) (الحجرات: 2) رعاية لكرامة النبي (صلى الله عليه وآله) ومكانته، إذ كانت العرب تفخر بجهازة الصوت ورفعته؛ فنهى المؤمنون عن ذلك.

والغضُّ حقيقته: التآني في القول والزَّفَق بالمخاطب وترك الاستطالة عليه (الغشيري، 2016م/1437هـ، ج2، ص289)، وهكذا فقد أمر لقمان ابنه بالاعتقاد في صوته أدياً مع الناس ومع الله فقال ((واغضض من صوتك)): أي أنقص أو أخفض صوتك؛ وأقصر، فاجعله قصداً إذا تكلمت (الطبري، 2001م/1422هـ، ج22، ص146).

أو بعبارة أخرى لا تتكلف رفع الصوت، وخذ منه ما تحتاج إليه، فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلف يؤذي السامع (ابن العربي، 1424/2003هـ)، فإن لم تكن هناك ضرورة للحديث والتكلم، فإنَّ السكوت خير منه ففي حديث عن الإمام الرضا (عليه السلام) أنه قال (من علامات الفقه: العلم والحلم والصمت، إنَّ الصمت باب من أبواب الحكمة، إنَّ الصمت يكسب المحبة، إنَّه دليلي كل خير) (الكليني، 1367ش، ج2، ص113)، وكيف كان الأمر فإن الآية أدب للسلوك الفردي والجماعي بترك الصياح في وجوده الناس تهاوناً بهم، أو بترك الصياح جملة بوصفه من الخلق الجاهليّة (القرطبي، 2001م/1422هـ).

وهنا أيضاً - كما جرت العادة عند لقمان الحكيم في الإتيان بالعلة بعد كل موعظة - لما أمره بخفض الصوت وكفّه، أعقبه ببيان العلة والسبب لتغييراً له عن رفع صوته بدون مقتضى لذلك بقوله ((إنَّ أنكر الأصوات لصوت الحمير)) (لقمان: 19)، واختلف أهل التأويل في معنى أنكر الأصوات على قولين: فقال بعضهم معناه: أقبح الأصوات، وقال آخرون: أشر الأصوات، وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال معناه: أقبح وأشر الأصوات، وذلك نظير قولهم إذا رأوا وجهاً قبيحاً أو منظرًا شنيعاً: ما أنكر وجه فلان، وما أنكر منظره (الطبري، 2001م/1422هـ).

ومما سبق يتبين أن رفع الصوت في الكلام بدون موجب لذلك - يُشبهه نهيق الحمير في علو أصواتها، فله حظ من النكارة (ابن عاشور، 1984هـ-) وأنكر الأصوات أي أوحشها وأقبحها وأشرها: إذا أنكرتها النفوس واستوحشت منها ونفرت (الزمخشري، 1407هـ/1987م، ج3، ص497)، فالجملة الكريمة حصَّ على غضِّ الصوت بأبلغ وجهٍ وأكدته، إذ شبَّهت الزافعين لأصواتهم في غير حاجة إلى ذلك بأصوات الحمير التي هي مثار السخرية مع التفور (ينظر: الوسيط)، وهذا تنبيه على أن غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعته، وهذا التشبيه بالحمير يقتضي ذمه غاية الذم (ابن كثير 1998م/1419هـ—)، فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمير، المعروفة ببلادتها وأصواتها المرتفعة (السعدي، 2000م/1420هـ).

هكذا يرشد لقمان ابنه إلى أدب من آداب المجالسة والحوار والتواصل مع الناس، وهو يجعل من خفض الصوت وعدم رفعه من دون الحاجة لذلك، منهجاً وأسلوباً أساسياً في التربيّة والتعلّم، وحتى يكون ذلك منهجاً أدعى للقبول جاء التحذير من رفع الصوت بأسلوب غاية في التغيير والجزر استعمل فيه تشبيهاً يشدُّ أسماع الجميع حيث قال ((إنَّ أنكر الأصوات لصوت الحمير)) (لقمان:

(19)، فإنّ رفع الصوت من دون مبرر لا أثر له سوى أنّه يؤدّي سامعيه ومخاطبيه، وغاية ما يمكن أن يبلغه ذلك هو التشبه بصفة من صفات الحمير التي تؤذي الناس بشدّة ارتفاع الصوت وطريقته من جهة، وكونه يطلق أحياناً بلا سبب أو داعٍ من جهة ثانية، ومن هنا أراد لقمان الحكيم أن يبعد ولده عن التشبه بأقبح الأصوات المسموعة وأوضاعها، وينأى بنفسه عن هذا الخلق الجاهلي.

والحقّ أن الإنسان الذي يتّبع هذه النصائح ويسلك هذا المنهج الحكيم - الذي فيه رضاٌ لله أولاً، ثمّ للناس ثانياً - يكون موقفاً وسعيّاً في الحياة، ومحبوياً بين الناس، وعزيراً عند الله تعالى، وبتنفيذ هذه الوصايا يسعد الأفراد وترقى المجتمعات. إنّ هذه الوصايا الخمس تُشكّل هرمًا تربويًا تتجلى فيها الشخصية الفعالة والمؤثرة التي توازن بين واجب الغيرة على الدين وحتمية التحلي بأداب حُسن الخلق في التعامل مع الناس تحقيقاً للمنهج النبوي (إنّما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

ختامًا:

يؤكد هذا البحث أنّ الوصايا الختامية في موعظة لقمان لابنه لا تُمثل مجرد قائمة نصائح عابرة؛ بل هي منظومة قيمية مترابطة، تقدم منهجاً مترابطاً كمنسق واحد يجمع بين التحفيز المرغّب، والرّجاء المنقّر، فكل وصية منها قرن بها ما يدعو إلى فعلها والالتزام بها إن كانت أمراً، وإلى تركها والتخلي عنها إن كانت نهياً.

إنّ هذه الوصايا قابلة للتطبيق العملي في حياة الفرد والمجتمع على حد سواء، ويمكن للأباء والمربين الاستفادة منها والسير عليها في أهم ما يجب رعايته في تربية أبنائهم بشكل خاص، وبناء المجتمع الإسلامي بشكل عام؛ فالغرض من عرض تلك الوصايا بطريقة الموعظة المتدرج فيها بذكر الأهم فالذي يليه هو تربية الإنسان.

إنّ هذه الوصايا اللقمانية جمعت كل خصال الخير التي تعمل على بناء الإنسان بدءاً من المسؤولية الاجتماعية الفاعلة المتمثلة بـ (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) المقرونة بالصبر، ثمّ تنتقل لترسيخ الآداب الأخلاقية المتمثلة في التواضع والوقار، عبر النهي عن الكبر، وتوجيهه إلى الوسطية والاعتدال في السلوك الظاهري، لتنتهي بضبط المظاهر السلوكية بـ (الاعتدال في المشي وخفض الصوت).

وبناءً عليه نوصي بمزيد من البحث والدراسة لهذه الوصايا والقيم وضرورة إفراها بمنهج تربوية في المؤسسات التعليمية والأسرية، والعمل على إنشاء برامج تطبيقية وتصميم مواد إعلامية مؤثرة تنقلها من حيز النصّ القرآني إلى واقع ملموس في السلوك اليومي.

وأخيراً أتمنى أن يكون هذا البحث قد وفق في كشف بعض جوانب الحكمة في وصايا لقمان الحكيم، وأن يكون إضافة مفيدة وحافزاً لمزيد من الدراسات والأبحاث في هذا المجال. والله الموفق والمعين

المصادر:

- القرآن الكريم.
- ابن عاشور، الطاهر محمد، (1984هـ). التحرير والتنوير. تونس: الدار التونسية.
- ابن العربي، أبو بكر محمد بن عبد الله. (2003م/1424هـ) أحكام القرآن. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن عطية، عبد الحق عبد الرحمن. (2004م/1425هـ). المحرر الوجيز. بيروت: دار إحياء التراث.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، (1972م/1392هـ). معجم مقاييس اللغة. بيروت: دار الجيل، دار الفكر.

- ابن كثير، إسماعيل بن عمر. (1998م/1419هـ). تفسير القرآن العظيم. بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن منظور، محمد بن مكرم. (1405هـ). لسان العرب. قم: أدب الحوزة.
- البغي، الحسين بن محمد. (1997م/1417هـ). معالم التنزيل في تفسير القرآن. الرياض: دار طيبة.
- البيضاوي، ناصر الدين. (1418هـ). أنوار التنزيل وأسرار التأويل. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- الترمذي، محمد بن علي. (1992م). نوادر الأصول في أحاديث الرسول. بيروت: دار الجيل.
- الجرجاني، علي بن محمد، (2003م/1424هـ). التّعريفات، بيروت: دار إحياء التّراث العربي.
- الجوزيّة، محمد بن أبي بكر ابن قيم. (1996م/1416هـ—). مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. بيروت: دار الكتاب العربي.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد، (1407هـ/1987م). الصّاح تاج اللغة وصحاح العربية. بيروت: دار العلم.
- الحراني، الحسن بن علي بن الحسين ابن شعبة. (1404هـ). تحف العقول عن آل الرسول. قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين.
- الحر العاملي، محمد بن الحسن. (1414هـ). وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة. قم: مؤسسة آل البيت.
- راضي، علاء عبد الحسين. (2025م). لوازم المحبّة الإلهيّة وفق الرّؤية العرضانية للإمام علي (ع). مجلة كليّة التّربيّة، 57(2) 19-40. <https://doi.org/10.31185/eduj.Vo157.Iss2.4121>
- الراغب، الحسين بن محمد الأصفهاني. (1427هـ). مفردات ألفاظ القرآن. قم: طليعة النور.
- الري شهري. محمد. (1390ش). العلم والحكمة في الكتاب والسنة. قم: دار الحديث.
- الرّمخشري، جار الله محمود بن عمر. (1996م/1385هـ—). الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، القاهرة: دار الريان للتراث. بيروت: دار الكتاب العربي.
- السّعدي، عبد الرحمن بن ناصر. (2000م/1420هـ). تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- سيد قطب، محمد. (2003م/1423هـ). في ظلال القرآن. القاهرة: دار الشروق.
- السيوطي، جلال الدين. (2001م/1422هـ). الدر المنثور في التفسير في المأثور. بيروت: دار الكتب العلمية.
- شرف الدّين: جعفر، (1420هـ) الموسوعة القرآنية خصائص السّور. بيروت: دار التّقريب بين المذاهب.
- الشّوكاني، محمد بن علي. (1414هـ—). فتح القدير الجامع بين فني الرّواية والرّواية من علم التّفسير. دمشق: دار ابن كثير. بيروت: دار الكلم الطّيب.
- الشّيرازي، ناصر مكارم. (2013م/1434هـ). الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، بيروت: الأعلام.
- الصّدوق، أبي جعفر محمد بن علي، (1417هـ). الأماليج. قم: مؤسسة البعثة.
- الصّدوق، أبي جعفر محمد بن علي. (1368هـ). ثواب الأعمال وعقاب الأعمال. قم: منشورات الرضى.
- الطّبطبائي، السّيد محمد حسين. (1997م). الميزان في تفسير القرآن. قم: جماعة المدرسين في الحوزة العلميّة.
- الطبرسي، أبي علي الفضل بن الحسن. (1995م/1415هـ). مجمع البيان في تفسير القرآن. بيروت: الأعلمي.

- الطَّبْرِي، محمد بن جرير. (2001م /1422هـ). جامع البيان في تفسير القرآن. القاهرة: دار هجر.
- الطَّرِيحِي: فخر الدِّين، (1362ش). مجمع البحرين، مرتضوي، طهران: جايدانه-طروات.
- الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد. (د.ت). إحياء علوم الدين، بيروت: دار الكتاب العربي.
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد. (1409هـ). العين. قم: دار الهجرة.
- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد. (2005م/1426م). القاموس المحيط. بيروت: مؤسسة الرسالة.
- الفيض الكاشاني، المولى محسن. (1379هـ). الصافي، طهران: مكتبة الصدر.
- قراءتي، الشيخ محسن. (2014م/1435هـ). تفسير النور. بيروت: دار المؤرخ العربي.
- القرطبي، محمد بن أحمد. (2001م/1422هـ). الجامع لأحكام القرآن، بيروت: دار إحياء التِّراث العربي.
- القشيري، بكر بن محمد بن العلاء. (2016م/1437هـ). أحكام القرآن. دبي: جائزة دبي الدولية.
- الكليني، محمد بن يعقوب. (1367ش). الأصول من الكافي، حيدري. طهران: دار الكتب الإسلاميّة.
- المجلسي، محمد باقر. (1983م/1403هـ). بحار الأنوار. بيروت: مؤسسة الوفاء.
- مغنية، محمد جواد. (2005م/1426هـ). التفسير المبين. بيروت: دار الكتاب الإسلامي.
- النَّراقِي، محمد مهدي. (2004م/1425هـ). جامع السَّعادات، مصر: منشورات إسماعيليان.
- الواحدي، علي بن محمد. (1994م/1415هـ). الوسيط في تفسير القرآن المجيد. بيروت: دار الكتب العلمية.